

ساد في شمال و شمال شرق إفريقيا ، ففي العصور القديمة لم تخضع الأقسام الشمالية و الشمالية الشرقية لتأثير الحضارة السامية (الفينيقية و العربية القديمة) فقط بل كانت معرضة للإستيطان السامي ، إذ كانت إفريقيا محط الشعوب السامية القادمة من الجزيرة العربية و إلى القرن الإفريقي بصغة خاصة و من أهم الشعوب الحامية نجد قدماء المصريين و النوبيين الذين يستقرون على ضفاف نهر النيل إلى الجنوب من أسوان و قبائل البجة ذات العدد الوفير و التي كانت مصدرا من مصادر القوى العاملة التي استعان بها المصريون القدماء ثمّ العرب فيما بعد للعمل في المناجم الموجودة في شمال السودان و إريتيريا و أهمها مناجم الذهب ، و كان لاستقرارهم حول هذه المناجم أثر كبير في عقائدهم ، و عندما بدأ العرب يحلّون محلّ المصريين اختلطوا بالبجة و تزوجوا منهم ، كما زادت روابطهم في كثير من المناطق الأخرى و أهمها الموانئ فانتشر الإسلام بينهم و استمر انتشاره حتى أصبح جميع البجة مسلمين

المحور الثاني : ممالك السودان الغربي .

من خلال ما جاء في المصادر العربية نستطيع أن نصل إلى تحديد قريب من الواقع لمنطقة السودان الغربي ، و هي المنطقة التي تطل غربا و جنوبا على المحيط الأطلسي و تحدها الصحراء الكبرى شمالا و من الشرق تتاخم بحيرة التشاد ، و باختصار تشمل ما يعرف اليوم بحوض السنغال و غامبيا و فولتا العليا (بوركينافاسو) و النيجر الأوسط، و يجري في هذه المنطقة نهران مهمان هما نهر النيجر و نهر السنغال ، و هما يجريان بمحاذاة الصحراء الجنوبية، و قد تعاقبت على منطقة السودان الغربي ثلاثة ممالك هي غانة و مالي و السنغالي (السنغالي) .

المحاضرة رقم:03

أولا : إمبراطورية غانة (469 – 600هـ / 1076 – 1203 م) .

شكلت مملكة غانة أول تنظيم سياسي متطور عرفته بلاد السودان خلال العصر الوسيط ، و إذا كنا نجهل الشيء الكثير عن أصولها التاريخية فإنّ الكتابات العربية – خاصة خلال القرن 11هـ/م – استطاعت أن تنتشلها من أعماق التاريخ المظلم إلى حيّزه المضيء ، الشيء الذي مكّنا من الوقوف على بعض التطورات التي عرفتها المملكة.

1 – الموقع و التسمية : إنّ غانة المقصودة بهذا الحديث ليست غانا التي تقع في أقصى الجنوب من غربي إفريقيا و التي عاصمتها أكرا اليوم ، و إنّما المقصود هاهنا هي التي كانت تقع بين منحنى نهر النيجر و نهر السنغال و تضرب حدودها في جنوب موريتانيا الحالية ، و كانت عاصمتها تعرف بكومبي على بعد 200كم شمال بماكو عاصمة دولة مالي حاليا .

و كما سبق ذكره فإنّ تاريخ مملكة غانة البكر يكتنفه الغموض ، فهناك من يرى أنّ تكوينها يعود إلى فترة سبقت ظهور الإسلام لكنّ قوتها ظهرت في العصر الإسلامي ، و رأي آخر يرى أنّها وُجدت منذ القرن 5م و تبوأّت مكانة ذات شأن منذ حوالي القرن 9م حتى النصف الأول من القرن 11م ، بينما هناك من يُرجح قيامها في القرن 4م.

و فيما يتعلق بكيفية ظهور هذه المملكة فإنّ هناك بعض القصص المتوارثة بين قبائل السونينك (Sonink) الذين يعتبرون البذرة الحقيقية التي تفرعت عنها أرجاء الإمبراطورية ، و تقول إحدى هذه القصص إنّ قبائل السونينك التي تعيش في الوادي الخصيب الممتد من شواطئ نهر السنغال و حتى انحناءة نهر النيجر في الشرق قد تعرّضت في القرن 4م إلى غزو كبير من بعض قبائل البربر ، و قد امتزج البربر تماما بقبائل السونينك و عاشوا حياتهم و تكلموا لغتهم (لغة الماندي) ، و كان من نتيجة هذا الإندماج العنصري التام بين الشعبين ظهور مملكة جديدة في غرب إفريقيا هي مملكة وغادو (Wagadou) ، و هو اسم مستمد من عشيرة وغادو الملكية الحكام التقليديين لقبائل تلك المنطقة ، و لكن أرض تلك المملكة سُميت أرض غانة.

و قيل إنّ كلمة غانة كانت لقباً يطلق على ملوكهم ثمّ اتسع مدلول هذا الاسم حتى أصبح يطلق على العاصمة و الإمبراطورية ، و قيل إنّ كلمة غانة بلغة السونينك تعني القيادة العسكرية ، و من هنا أُطلقت هذه الكلمة على المدينة التي كانت بها هذه القيادة، و قيل إنّ تسمية غانة أُطلقها المؤسسون الأوائل لهذه الإمبراطورية و هم المهاجرون البرقاويون الليبيون و التجار الواردين على المنطقة من الشمال الإفريقي نظراً لأنّها كانت غنية بالذهب ، و يقال إنّ غانة كلمة ماندية معناها أمير الجيوش أو قائد الجيوش.

2 – مراحل الحكم في إمبراطورية غانة : يمكن تقسيم مراحل الحكم في مملكة غانة إلى مرحلتين أساسيتين هما :

أ – مرحلة حكم البيضان : أورد عدد من المؤرخين أنّ أول حكومة حكمت غانة كانت من البيض و تحديداً من مهاجرين من الشمال الإفريقي من إقليم برقة الليبي ، و يرجع ذلك إلى حوالي القرن الأول الميلادي ثمّ استقرت في منطقة أوكسار وسط مجموعة من قبائل الزنوج تتكلم لغة الماندي ، و أغلب هذه المجموعة من السونينك ، و في وقت ما من القرن 4م استطاع هؤلاء المهاجرون من بسط نفوذهم و تزعّموا السكان ، و ظهر أول ملك منهم و هو كازا و اتخذ مدينة أوكار قرب تمبكت الحالية عاصمة له .

و هناك بعض المؤرخين الغربيين الذين حاولوا أن يدلّلوا بأنّ الحكومة البيضاء التي حكمت غانة حتى القرن 9م ما هي إلا بعض العناصر اليهودية التي هربت من برقة بعد ثورة اليهود عام 118م في مدينة شحات و ما نتج عنها من اضطهاد لهذه العناصر ، و مارست هذه النظرية تأثيرها على الدراسات

التاريخية لعشرات السنين ، ثم أخذت تدريجيا تفقد جاذبيتها مع تطور الأبحاث الأركيولوجية و لكن أساسا بسبب خلفيتها السلبيه التي تجعل من الإنسان السوداني عاجزا عن تحقيق أي مكسب حضاري دون تأثير عميق من الخارج ، فالسوداني – شأن البربري في الدراسات الإستعمارية – سلبي غير أصيل فيما ينتجه ، دائما في حالة انفعال و قاصر عن الإبداع ، و تجنح جل الدراسات حاليا إلى رفض مثل هذه الأطروحات مكثفية بالتأكيد على الأصل السوداني لحكام غانة الأوائل .

و ذكر السعدي في تاريخه أن قِيمَع هو الذي بدأ السلطنة و دار إمارته غانة ، و هي مدينة عظيمة في أرض باغن ، قيل إن سلطتهم كانت قبل البعثة ، فملك حينئذ اثنان و عشرون ملكا و بعد البعثة اثنان و عشرون ، و عدد ملوكهم أربعة و أربعون ملكا و هم بيضان في الأصل ، و رجح محمود كعت أن أصل حكام مملكة غانة الأوائل من البيضان و حددهم من صنهاجة ، و قد فسّر لنا هذا المؤرخ معنى كلمة كِيمَع بأنها تعني ملك الذهب فقال : " معناه في لغة و عكري ملك الذهب ، كي هو الذهب و مع الملك " .

ب – مرحلة حكم السونينك : مع نهاية القرن 8م تمكنت أسرة من السونينك و هي أسرة سييسي من طرد أسرة البيض الحاكمة أو دولة كِيمَع ، و استطاعت الدولة تحت هذه القيادة الجديدة أن تخضع بلادا واسعة و وصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى في مستهل القرن 11م ، فأصبحت غانة تسيطر على المسافات الممتدة من أعلى نهر السنيغال و أعلى نهر النيجر ، و امتد نفوذها إلى موقع تمبكت شرقا و بلاد التكرور أو السنيغال غربا و ينابيع النيجر جنوبا و أغلب موريتانيا حاليا شمالا ، و كانت عاصمتها مدينة كومبي صالح

تقع مدينة كومبي صالح إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت و تبعد عنها بحوالي 500كم ، و يرجع تأسيسها إلى حكمة البيضا ، و يقال إنَّها بُنيت عام 300م و ظلت تنمو تدريجيا ، و يصف البكري هذه المدينة قائلا : " و مدينة غانة مدينتان سهلتان ، أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون و هي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه ، و لها الأئمة و المؤذنون و الراتبون و فيها فقهاء و حملة علم ، و حواليها أبار عذبة منها يشربون و عليها يعتملون الخضروات ، و مدينة الملك على ستة أميال من هذه و تسمى الغابة ، و المساكن بينها متصلة و مبانيهم بالحجارة و خشب السنط ، و للملك قصر و قباب ، و قد أحاط بذلك كله حائط كالسور ، و في مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين .

3 – سقوط إمبراطورية غانة : قبل نهاية القرن 11م/6هـ و هنت قوى المملكة و تعرضت لكثير من المتاعب ، ففي سنة 433هـ/1042م ظهرت دولة المرابطين التي عملت على نشر الإسلام في جميع المناطق الوثنية غرب إفريقيا ، و ما إن حلَّ عام 445هـ/1054م حتى قامت قوات المرابطين بالهجوم على مدينة كومبي العاصمة التجارية لغانة ، و لكنَّ المدينة ظلت تقاوم الهجوم و الحصار لمدة

اثنان و عشرين سنة متواصلة حتى سقطت في النهاية ، و تحقق الفتح على يد الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني سنة 1076م/469هـ و سقطت حكومة غانة الوثنية ، و منذ ذلك الوقت يمكن أن نُورخ لإمبراطورية غانة الإسلامية حتى اختفائها من التاريخ مطلع القرن 13م ، و أضحت حكومتها حكومة إسلامية ، و يقال إن ملكها اعتنق الإسلام بدليل أن المرابطين تركوه في الحكم ، و بإسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان العاصمة و غيرها من المدن في الإسلام ، و أكثر من هذا فقد عملت حكومة غانة الإسلامية على الإتصال المباشر بالخلافة العباسية في بغداد، و كانت سيادة المرابطين على إقليم غانة قصيرة بسبب انشغالهم بشؤون المغرب و الأندلس ، و لكن سرعان ما تخلصت غانة من هذه السيادة على إثر اغتيال أبوبكر بن عمر اللمتوني سنة 1087م/480هـ على يد أحد زعماء قبائل الموسي (Mossi) في شمال داهومي ، و انتهزت بلاد السودان الغربي الفرصة و ما تبعها من اضطراب الجيوش المرابطية هناك بعد وفاة قائدها فأعلنت استقلالها ، و في نفس الوقت استطاعت بعض الولايات التي كانت تابعة لإمبراطورية غانة أن تنفصل هي الأخرى و تستقل في حكمها و أصبحت ممالك مستقلة ، بينما أصبحت سلطة ملوك السونينك ضعيفة ممّا أضعف الدولة و مهّد للقضاء عليها.

و جاءت نهاية المملكة عل يد قبائل الصوصو سنة 1203م/600هـ بقيادة سوما نجورو كانتني (Somangure Kante) ، و ما إن سقطت العاصمة حتى فرض الغازون الجدد عليها نظاما استبداديا و جزية طائلة أفلست أهلها ممّا دفعهم للهروب نحو مدينة ولاتة و التي لا تقع ضمن سيطرة قبائل الصوصو ، و ما إن حقق سوما نجورو انتصاره ذلك حتى هاجم مدينة كانجبا و التي تعد الموطن الحقيقي للماندنغو مؤسسو دولة مالي فيما بعد و قتل حاكمها و عائلته ، و لم ينج منهم سوى الإبن الأصغر الذي فرّ من هذا البطش ، و بذلك انتهت مملكة غانة.

و من عوامل الإنهيار التي برزت قبل هذا بأمد طويل العامل الطبيعي و المتمثل في الجفاف التدريجي الذي حلّ بالبلاد الواقعة شمال حوض السنيغال قبل القرن 11م/5هـ ممّا دفع الناس للهجرة ، و عامل ثان يتمثل في جهاد المرابطين و إن كان لم يؤدّ إلى اختفاء المملكة غير أنّه أدّى إلى تحولها إلى الإسلام

4 – الجوانب الحضارية لإمبراطورية غانة :

أ – نظام الحكم في غانة : كان نظام الحكم السائد في غانة نظاما ملكيا استبداديا ، و النظام المتبع في وراثة العرش هو توريث ابن الأخت و في ذلك يقول البكري : " و مذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك ، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته و هو يشك في ابنه و لا يقطع على صحة اتصاله به " ، و هذه الظاهرة أي توريث ابن الأخت العرش لها جذورها في التقاليد الوثنية القديمة ، و عند وصول الإسلام إلى غانة أضعف من هذه الظاهرة لكنّه لم يقض عليها قضاء كاملا في جميع المقاطعات في السودان الغربي ، و منذ أواخر القرن 11م/5هـ أي فترة تغلغل الإسلام صار الملوك يُورثون الحكم لأبنائهم الذكور.

و كان الملك يباشر سلطته انطلاقا من العاصمة كومبي صالح ، و يساعده في مهامه عدد من الوزراء و الموظفين ، و يظهر أنّ علاقة السلطة الحاكمة بالرعايا كانت مدعمة بقيم اجتماعية ثقافية أصيلة تتمثل أساسا في العدل الذي يطبع سلوك الملوك الحاكمين تجاه الرعية .

ب - التقسيم الإداري : قُسمت غانة إلى ولايات أو ممالك ، و كان لكل منها حاكم يُسيّر أمورها ، و من أشهرها أودغست و أوكار (و هي نواة المملكة) إضافة إلى هوذ في الوسط و ممالك عرب المغاربة في الشمال و ديارا و باسيكورو في الشرق و واجادو و بغن في الجنوب و الجنوب الشرقي، و بجانب الوالي نحد القاضي أو الأمين و إليه يحتكم أهل غانة في قضاياهم و مختلف مشاكلهم اليومية ، و في إطار التسيير الجهوي لا يستبعد مشاركة الزعامات المحلية في الحياة السياسية ، و حتى يضمن الملك ولاءها و عدم عصيانها كان يأخذ أبناءهم رهائن يقيمون عنده في القصر.

ج- الإقتصاد في غانة : إنّ سيطرة مملكة غانة على المراكز التجارية و بعض مناجم الذهب جعلها تحتكر أهم السلع المتداولة في التجارة الصحراوية الذهب و الرقيق ، و إذا أضفنا مداخل الضرائب المفروضة على السلع الواردة من البلاد و الصادرة عنها أمكننا فهم الأسس التي قام عليها الرخاء الإقتصادي.

و عرفت غانة نشاطا زراعيًا كان عماده نهر النيجر ، و كانوا يزرعون على ضفافه مختلف الخضروات و الفواكه ، كما تمتعت غانة بثروة حيوانية برّية و مستأنسة من بقر و غنم و غزلان و أسود ، و مارس السكان أيضا حرفا مختلفة كصناعة القوارب التي تستخدم في حمل الأمتعة على نهر النيجر ، كما كانت لديهم صناعة الملابس من صوف يستخرج من شجر يدعى توزري ينمو ببلادهم

د - الديانات في غانة : يوجد في غانة عدد من الديانات و منها الإسلام الذي يدين به عدد من السكان ، و قد ذكر البكري عن عاصمة غانة أنّها مدينتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون و هي كبيرة، كما توجد العبادات الوثنية و المجوسية و ذكر منها البكري أيضا عبادة الدكاكير و الدكور عندهم الصنم ، و ذكر أنّ بداية الإسلام في المملكة ارتبط بالمدن في حين ظلت الأرياف بعيدة عن التأثير الإسلامي ، و هذه الظاهرة تمثل ظاهرة عامة في بلاد السودان و لا تخص مملكة غانة وحدها.

المحاضرة رقم:04

ثانيا : إمبراطورية مالي (596 – 874 هـ / 1200 – 1469 م) .

بعد تفكك إمبراطورية غانة الوثنية سنة 1076/460م بفعل جهاد المرابطين ثم انسحابهم من المنطقة وُجد فراغ سياسي جعل عددا من الأقاليم الغانية تنفصل